مرة اخرى ..

في قضية الدكتور جيفاغو !

بقلم رئيف خوري

بعث الينا الاستاذ رئيف خوري بهذا الرد على ما كتبه بعض الادباء تعليقا على مقاله المتعلق بكتاب بوريس باسترناك . ولما كانت «الآداب» على موقفها من الايمان بحرية الفكر ، فانها تنشر هذا المقال دون ان تتبنى آراء الكاتب ، وهي تترك المجال مفتوحا للرد على هذه الآراء .

كان من حظ هذا الفصل المقتضب الذي كتبه صاحب هذه السطور(١) في قضية الدكتور جيفاكو ان استرعى بعض الباحثين ، فتناوله بالتعليق او بالرد (٢) كل من الدكتور عبدالله عبد الدائم والاديبين محمد كشلي وباسم عبد الحميد حمودي .

ولا ارى لي مندوحة قبل الخوض في صميم الموضوع ان اصحح ، تصحيحا طفيفا ، حكما اصدره علي السيد باسم حمودي ، حين قال انني « مضطر » للدفاع عن تصرفات هذه الاشتراكية (يعني اشتراكية الاتحاد السوفياتي) بحكم حبي لها ! ولو قد اضاع السيد حمودي لحظة من وقته رجع فيها الى مجموعة « الاداب » سنة ١٩٥٥ ، عدد آب ، لقرأ فصلا بعنوان « عودة الى مسألة التوجيه في الادب » يثبت له انني بعيد عن ان ادافع عن شيء بحكم حبي له ، حتى تصرفات الاشتراكية السوفياتية . فالعقل هو الذي ينبغي له ان يحكم في مثل هذه القضايا . وحبنا لشيء ما ينبغي له ان يعني اننا نحكم له دائما . وكرهنا لشيء ما ينبغي له ان يعني اننا نحكم عليه دائما . فليس اقبح من حب وكره يستوليان على انسان فيحكم للاشياء او عليها سلفا ، تراه اذا أحب شيئا عمي عن مساوئه ، وزاد اصرارا على العمى ، كلما توضحت هذه المساوىء ، واذا كره شيئا عمي عن محاسنه وزاد اصرارا على العمى كلما تجلت هذه المحاسن ، ذلك لان الذي يكره سلفا يعتبر ان الشيء الذي يكرهه يزيده احراجا بما يكتسب من محاسن .

ولو ان السيد حمودي احضر في ذهنه ما حواه مقالي « في قضية الدكتور جيفاكو » ، بصدد الاتحاد السوفياتي وتجربته الاشتراكية الكبرى، لوجد ان هذا العطف الذي ابديته لم يرد الا وقد عللت له بالسبب الذي اعتبره مقنعا ، وهو اهمية الاتحاد السوفياتي وتجربته الاشتراكية ، بالقياس الى التحرر القومي العربي وتحرر الانسانية كافة ، فحتى « مكافحو الشيوعية » الذين ثبت انهم يكافحون شيئا آخر غير الشيوعية ، والذين عودونا الحديث المنمنم الملون عن وجوب العدالة الاجتماعية ، واقامة مجتمع لا فقر فيه ولا مرض ولا بطالة ولا احتكار ولا استعمار ولا استثمار ، يعترفون ضمنا او يعترفون صراحة بان هذا كله انما وجب لانه يقطع الطريق على الشيوعية ، وبذلك يعترفون ، من حيث يشعرون او لا يشعرون ، بأهمية الاتحاد السوفياتي وتجربته الاشتراكية !

وكما اني اثبت في اكثر من موقف باني غير مضطر دائما وسلفا للدفاع عن الاتحاد السوفياتي ، برغم ما اكنه له من صداقة ، فاني أتمنى للسيد حمودي ان لا يكون بدوره من المضطرين ان يحملوا دائما وسلفا على الاتحاد السوفياتي ، ويحكموا عليه كيف كان الحال وكيف دار الامر . اتمنى هذا ، لا دفاعا عن الاتحاد السوفياتي ، بل ضنا بنظر السيد حمودي ان يصاب بالميوبية التي لا تغير من حقيقة المنظور اليه بقدر ما تؤذي عين الناظر ، سلمها الله .

بل اخشى ان لا يكون السيد حمودي ـ وليعذرني على الصراحة ـ بريئا كل البراءة من هذه الميوبية ، فان الاحكام المقررة عنده سلفا فيما يتعلق بكل شيء سوفياتي قد حالت بينه وبين ان يرى ما في مقالي من نقد للاتحاد السوفياتي ، وما أجد تفسيرا لذلك سوى ان مقالي كتب بلهجة ايجابية هادئة ، والنقد الذي وجه فيه الى الاتحاد السوفياتي لم يصدر عن رغبة في ادانة الاشتراكية السوفياتية كيف كان الحال وكيف دار الامر .

لقد كان هم السيد حمودي ان ينتهي في آخر المطاف الى نقطة الابتداء المقررة سلفا في ذهنه ، وهي « ان الشيوعية بعيدة كل البعد عن الديموقراطية ، بل انها تحاربها كحربها لاية حركة قومية !! » ولكن السيد حمودي وجد نفسه محرجا لان السيد خروشيف « لم يتخذ من باسترناك موقفا تعسفيا » ، فقال مرة ان السيد خروشيف « حاول ان يقيم الدليل على وجود الحرية والديموقراطية في بلاده » . ثم قال مرة اخرى : « ان السيد خروشوف لم يتخذ من باسترناك موقفا تعسفيا لانه لم يستطع » . ولو لم يكن هم السيد حمودي ان ينتهي ـ بأية طريقة ـ عند الفكرة المقررة سلفا في ذهنه ، لادرك ان هذه الحجج التي اوردها لا تدل على شيء الا على مقدار احساسه بالحرج . لماذا يكون السيد خروشيف غير مستطيع ان يتخذ موقفا تعسفيا من باسترناك ؟ ألأن الاضواء العالمية من جميع الجهات ، كانت ـ كما يقول السيد حمودي ـ مسلطة على باسترناك وقضيته ؟ ومن من اصحاب هذه الاضواء العالمية لا يمكن ان يقال له قول السيد المسيح : « انظر الجسر في عينك قبل ان ترى القشة في عين اخيك » ؟ فخروشيف لو اراد ان يتخذ تدبيرا حكوميا بحق باسترناك ، لاستطاع ان يرد على كل من ينصب نفسه ديانا له : ايها السيد ، قبل ان تحاسب غيرك ، حاسب نفسك ، ولا تقع في آفة ازدواج المقاييس للاشياء !.. واما ان السيد خروشيف حاول ان يقيم الدليل على وجود الحرية والديموقراطية في بلاده ، كما يقول السيد حمودي ، فأي جريمة في الامر ؟ وعلام ينبغي لنا ان نستقبل هذه البادرة منه استقبال الذي يريد التقليل من قيمتها ودلالتها . ألأننا مضطرون ان نحمل على الاتحاد السوفياتي كيف كان الحال وكيف دار الامر ، ام لان ذلك يضايقنا في حرصنا على فكرة ثابتة تحجرت في اذهاننا وهي ان الاتحاد السوفياتي يحارب الديموقراطية ويحارب أية حركة قومية .

ليثق السيد حمودي ان باسترناك لو فعل ما فعل في آخر عهد ستالين لنفي او قتل ، ولم تجده جميع الاضواء العالمية المسلطة من كل الجهات عليه وعلى قضيته ، وسواء ما كان من هذه الاضواء صادقا يعنيه حقا امر حرية الفكر ، او كان مزيفا يعنيه فقط ان يستغل الضحية .

اذن ، فموقف خروشيف هو حقا وصدقا دليل اتجاه جديد في موقف السلطة السوفياتية من حرية الفكر .

واما نشر قصة الدكتور جيفاكو في ايطاليا ، وعدم نشرها في الاتحاد السوفياتي ، فلا يعني ما اراد ان يستنتجه السيد حمودي . ان المطالبة لباسترناك بحقه في حرية الفكر لا تلغي حق غيره في هذه

(١) نشرته الاداب ، العدد الثاني ، شباط ، ١٩٥٩

(٢) في العدد الثالث من الاداب ،اذار ، ١٩٥٩

الحرية . فمجلة « العالم الجديد » التي ردت قصة باسترناك ، لهـا الحرية ايضا في ان ترى رأيا في نشر قصة باسترناك او عدم نشرها . ان حرية اديب لا تلغي حرية اديب آخر او جماعة من الادباء ، وهـذا ما يخيل لي اننا كثيرا ما ننساه حين نخوض في بحث مسألة الحرية . اما اذا سلمنا بحق باسترناك ان يكتب ما هو حق بالنسبة لـه ـ كما يقول السيد حمودي ـ فيجب ان نسلم بحق ادباء مجلة « العـالم الجديد » ، وحق اتحاد الكتاب السوفيات ، ان يتخذوا من عمـل باسترناك الموقف الذي يرونه حقا بالنسبة لهم ، فينتقدوا باسترنـاك ما شاؤوا ، ويحملوا عليه باقلامهم ، ويعاقبوه وفق المسلك الادبي الذي ارتضاه عندما دخل في منظمتهم ، لا يستثنى من ذلك الا استعـداء الدولة عليه . وهذا ما اوضحته على وجه لا لبس فيه ولا غموض .

ولكن اتحاد الكتاب السوفيات الذي نيط به النشر ، والذي رد قصة باسترناك ، ليس سوى منظمة تشرف عليهـا الدولة . واذن ، فالدولة السوفياتية لا تحتمل حرية الفكر ـ الى هذا يتجه منطق السيد محمد كشلي . ولا ادري لماذا يحب الاخ الصديق ان يقفز فوق هـذه الحقيقة : ان ثمة ادباء زملاء لباسترناك قد اجمعوا اجماعا على انكار محتوى قصته . وانها حقيقة توجب علينا ان نستنتج ، تبعا لمنطـق الاخ الصديق ، ان هؤلاء الادباء جميعا هم عبيد وباسترناك وحده هو الحر . وما الدليل ؟ الدليل ان باسترناك وحده هو الذي هـاجم النظام السوفياتي ! وهذا يردنا الى موقف السيد حمودي نفسه ان المهم عندنا هو ان ننتهي الى بيت القصيد ، اعني مهاجمة الاتحـاد السوفياتي . واذا اشركنا النظام الاميركي ، في الاخضاع لهذه المهاجمة ، فذلك افضل لاننا نغطي بذلك نقطة انطـلاقنا التي هي الحملة على الاشتراكية السوفياتية كيف كان الحال وكيف دار الامر .

كلا ، ايها الاخ الصديق ... انك تتحدث عن شيء تسميـه « المجتمع الطابعي » ، وتدخل فيه النظامين الاميركي والسوفياتي ادخال متعسف بحق كليهما ، ضاربا عرض الحائط بما بينهما من فـروق موضوعية جذرية ، وكل ذلك لتنتهي الى مذهب خيالي في معنى حرية الاديب . ثق ايها الاخ الصديق انه لا يمكن لانسان ان يعيش في نظام اجتماعي ويكون مطلق الحرية من هذا النظام كما يخيل لي انك تتصور. واذن ، فقضية الحرية الفكرية التي تحب ان تأخذها اخذا اعمـق ، هي في كل زمان ومكان قضية الشروط الموافقة لهذه الحرية وطبيعتها . وفي مقدمة هذه الشروط ان يناط تطبيقها بالذين يفـرض فيهم ان يعنيهم امر تطبيقها على الـوجه المستقيم . فحرية الفكر تنـاط بالمفكرين وتراعى فيها طبيعتها الناشئة مـن كونها حرية فكر تساس بوسائلها الخاصة . ومن هنا كان امرا مهما جدا ان ادباء زمـلاء لباسترناك هم الذين ادانوه وشجبوا قصة « الدكتور جيفاكو » . واذا استثنيت ما طلبوه من تدخل الدولة لتجريده من جنسيته ـ وهـو طلب اخطأوا فيه ـ وجدتهم في ادانته وشجبهم لقصته قد راعـوا طبيعة حرية الفكر فناقشوه في رسالة طويلة وجهت بها اليه هيئـة تحرير مجلة « العالم الجديد » . ولكن باسترناك لم يأبه لهم ، لا لانـه كان مقتنعا بأنه على حق . فلو كان على مثل هذا الاقتناع لما تنصل ، ولما عاف قبض جائزة نوبل التي بذلت له والتي ابيح له حق السفر لقبضها . وان تنصله هذا ، وتركه الجائزة ، يدلان على انه لم يكـن مقتنعا بعدالة موقفه ، او يدلان على انه لا يخلو من جبن ، وهـذه شر من الاولى .

والذي يبدو لي ان السيد كشلي ، بعد الشوط الطويل الـذي قطعه منطلقا فيه من نظرية خيالية في الحرية ، قد عاد ففطن الـى ان هذه النظرية وان « خدمت المصلحة » في التسوية بين النظامين السوفياتي والاميركي ، ومهاجمتهما معا ، فهي قد تنقلب نظرية خطـرة في نظام آخر يلقى فيه كثير من الادباء شرا مما لقي اديب فـرد هو باسترناك . ويرى السيد كشلي صعبا عليه ان يعرض بهذا النظـام من قرب او بعد . ولذلك يتذكر فجأة ان لا بد من شروط في الحرية ، فيطلع علينا بنظرية عن الفرق بين « الاختيار الصادق للنهج الفكـري ، ونوع آخر نستطيع ان نسميه المؤامرة الفكرية المدفوعة من الخارج » .

مرة اخرى ، كلا ايها الاخ الصديق ! ليس لك ـ وانت الاديب الذي تفرض فيه الغيرة على حقوق الفكر ـ ان تسلح الدولة ـ اي دولة ـ بمثل هذا السلاح الذي تتيح لها به ان تنحر حرية الفكر . فكل حاكم ـ الا اذا أيدته ـ يستطيع في أيسر اليسر واسهل السهولة ان يـزعم ان « اختيارك لمنهجك الفكري ليس صادقا » ، وانك محرك « بمؤامرة فكرية مدفوعة من الخارج » . اي منهج فكري ، ايها الاخ الصديـق ، الاشتراكية ، ام الديموقراطية ، ام القومية ، ام الحياد الايجـابي ، ام المادية ، ام المثالية ، لا يمكن ان تكشف فيه ملامح وسمات مـن « الخارج » ، فيسمى بالتالي « مؤامرة فكرية مدفوعة من الخارج » ؟ ومنذ متى كانت هناك حدود ترسم داخلا وخارجا في عالم الفكر ؟ كل ما في الامر ، ايها الاخ الصديق ، ان ثمة مذاهب ونظريات في عـالم الفكر الانساني ، ينظر عند محاولة تطبيقها في هذا النطاق الحي او ذاك ، الى الظروف الموضوعية . وعلى كل حال ، لا يجوز البتة ان نسلم لدولة ، اي دولة ، ان تقرر اي من هذه المذاهب والافكار والنظريات هو نابع من داخل الحدود ، وايها هو نابع من خارجها ، وايها نـابع من الارادة وايها من اللاارادة .

وثق ايها الاخ الصديق ان نشاط مؤسسة فرانكلين التي عرضت لذكرها ليس مضرا لان الثقافة الاميركية تنبع من خارج الحدود . ففـي الثقافة الاميركية ، كما في غيرها ، تقدمية تحررية ورجعية استعمارية. والتقدمية منها صالحة لنا مع حسن الاختيار ، وان هي لم تنبـع شكليا من داخل حدودنا ، بينما الرجعية غير صالحة لنا وان تـلاقت جوهريا مع الرجعية عندنا لقاء يظهرها كانها نابعة من داخل حدودنا . اذن بمقياس التقدمية والرجعية تقاس الافكار ، لا بمقياس نبعها مـن داخل الحدود او خارجها . والدرس للظروف الموضوعية ، والامكانات المنشودة ، والنقاش الحر والانتقاد بوسائل الانتقاد الفكري ، هي التي تقرر ذلك ، لا الدولة .

واني خلافا لما تعتقده لا ارى ان باسترناك كان صادق الاختيار . فباسترناك ، واكرر القول ، قد شهد على نفسه بعدم الصدق فـي الاختيار او شهد على نفسه بالجبن ، حين تنصل ولم يقدم على السفر لقبض الجائزة . ومع ذلك لم أر من حق الدولة ان تتخذ بحقه تدبيرا قسريا ، ولا ان تقرر هي انه مدفوع من الخارج او غير مدفوع . فذلك يدخل في حق زملائه الادباء ، كما يدخل في حقهم ان يحاسبوه على مسلكه باعتباره عضوا في منظمتهم ، ويخرجوه من صفوف هذه المنظمة او لا يخرجوه ، ويرفضوا نشر قصته او لا يرفضوها ، ويناقشـوه سلامة المحتوى الفكري في قصته ، وحظها من الجمـال الفنـي .

وكذلك يحق لنا نحن مناقشته سلامة هذا المحتوى الفكري وحظ القصة من الجمال الفني ، وان تكن نابعة من خارج حدودنا .

وستجد ايها الاخ الصديق ان باسترناك قد ذهب في روايته الى افكار ما ارى كيف نستطيع ان نقره عليها بوصفنا ادباء ، افكار تنال منه كانسان ولا تنال من ثورة اكتوبر والنظام السوفياتي ، افكار لا تشرف اي نظام آخر يتسع للاخذ بها او اي رأس اخر يأذن لها بان تجول فيه وتتحكم في موقفه من الحياة اطلاقا .

واذا رايتني أصر على المحتوى الفكري في هذه القصة فلان باسترناك ارادها رسالة فكرية توجيهية . واذا انا ربطت بين هذه القصة وشخصية مؤلفها ، فلان الدكتور جيفاكو بطلها مقدود ، ولا بد ، على مثال باسترناك نفسه ، لان المؤلف يقف منه ابدا موقفا مليئا بالعطف والتأييد ، ويخلي له المنبر ليثبت افكاره ويكيل التهم ، دون ان يبيح هذا المنبر ولو لحظة للمتهمين كي يدافعوا عن قضيتهم .

ان السيد كشلي يستعرض طرفا صالحا من افكار الدكتور جيفاكو هذا . فهو يؤمن بالقوة الالهية كمسيرة للتاريخ ، ويرى ان الثورة ليست ضرورية ، وان الانسان يجب ان يعيش للحظة الحاضرة لا ليفني عمره في التحضير للحياة . ومن الغريب ان السيد كشلي لا يتريث دقيقة ليناقش هذه الافكار . انه مستعجل جدا ، يريد ان يفرق بين « الاختيار الصادق » و « المؤامرة الفكرية المدفوعة من الخارج » . ويريد ان يقرر في حال وجود هذا الاختيار الصادق ان الواجب يقضي باطلاق المجال للتعبير عن الرأي ومن ثم يترك للصراع الفكري الموضوعي اصلحية اية فكرة او منهج للبقاء ... ولكن السيد كشلي لا يخطر له على الاقل ان يقيس حتى بمقياسه هذا افكار جيفاكو باسترناك . حسبه ان باسترناك كان صادق الاختيار ، وان افكار جيفاكو باسترناك ، ان فاتتها الاصلحية (والسيد كشلي يعز عليه ان يصرح بذلك وان بدا عليه انه يعتقده) فالمسؤول عنده هو ازمة الحرية التي يعانيها المجتمع السوفياتي . وهكذا يكون المهم كيف كان الحال ، وكيف دار الامر ، ان ننال من هذا النظام السوفياتي !! اما ان افكار جيفاكو باسترناك هي افكار معطلة لكل ارادة بشرية ، داعية للجمود والخمود الاجتماعي ، مناقضة لمبدأ النمو الحضاري الذي يبني فيه الانسان لغده ، والجيل لمن بعده ، فكل هذا قليلا ما يعني السيد كشلي بل هو لا يسأل باسترناك اذا صح رأيه ان القوة الالهية هي التي تسير التاريخ مباشرة بكل استقلال عن ارادة البشر : ما معنى احتجاجك ، اذن ، ايها السيد ، فثورة اكتوبر وجميع الثورات هي من احداث هذا التاريخ الذي تستقل القوة الالهية بتسييره ، فما لم يعجبك منها تستطيع ان تسأل عنه القوة الالهية .

وبعد ، ان ازمة الحرية ، على افتراض ان مجتمعا يعانيها ، لا تبرر ابدا افكارا كافكار جيفاكو باسترناك . وبوجه خاص ، لا تبرر ان نصور اديبا يريد تغذية مجتمعه والمجتمع الانساني بمثل هذه الافكار انه بطل حرية . فالسيد كشلي يوافقني على ان المجتمع العربي يعاني ايضا أزمة حرية . فليقل لي الاخ الصديق ما يكون موقفه من اديب عربي يغذينا بمثل افكار جيفاكو باسترناك فيعلن لنا ان القوة الالهية هي المسير للتاريخ مستقلة عن ارادتكم ، فلا تتعبوا . عيشوا للحظتكم الحاضرة ، لان الانسان انما وجد ليعيش لهذه اللحظة لا ليفني عمره في التحضير للحياة ، او ليثور ، او لينشد اصلاحا ، او ليورث الاجيال من بعده « حياة افضل » هي كيف دار الامر غاية لا تبرر الوسائل التي تستعمل لنيلها ... افكان الاخ الصديق يكتفي بان يعتبر هذا الاديب صادق الاختيار ، ويلتمس له العذر في ازمة الحرية ؟ ام تراه كان يعتبر حماية المجتمع منه واجبا قوميا في فترة الانتقال (على حد تعبير الاخ الصديق نفسه) فيوافق على ان تقتص منه الدولة بحجة انه مشارك في « المؤامرة الفكرية المدفوعة من الخارج » ؟ ام ترى كان الاخ الصديق يهتف به : يؤسفني ، ايها الاديب ، انك مريض النفس ، وانك مفلس اقبح افلاس فكري وروحي . ومع ذلك فانا لا أستعدي عليك الدولة ، وانما ارفض ان اخاطب الشعب واياك من منبر واحد ، وساستنفر زملائي الادباء ليقنعوك بان ترتدع ، وليتبهوا شعبي لخطر السم في هذا الغذاء الذي تدفع به اليهم ؟

اني اعتقد ان لا موقف صحيح الا هذا الموقف الاخير ، وان جيفاكو باسترناك يستحق هذا الموقف ، وان الادباء السوفيات ـ اذا استثنينا انهم اخطأوا اذ استعدوا عليه الدولة ـ قد كانوا على حق في تصرفهم ازاء باسترناك . واعتقد فوق ذلك ان تورع الحكومة السوفياتية عن اتخاذ اي تدبير بحقه هو دليل انفتاح جديد في الديموقراطية السوفياتية ، وان باسترناك بعيد عن ان يكون رجلا امينا حقا مع نفسه، شجاعا ، سليم النفسية ، ولا دخل في ذلك للمجتمع السوفياتي .

وما اظن الاخ الصديق ، محمد كشلي ، الا قد قرأ هذه القصة ـ « الدكتور جيفاكو » ـ وسمع باسترناك يقول بلسان بطله وهو موافق على ما يقول :

« اني اسلم بانكم مشاعل نور . وانكم محررو روسيا . اسلم بانها لولاكم لهلكت وغرقت في البؤس والجهل . ومع ذلك اني لا اكترث لكم . اني لا احبكم . فليذهب بكم الشيطان جميعا » .

هكذا يخاطب جيفاكو باسترناك ، او باسترناك جيفاكو ، مواطنيه . انه يشهد لهم بالدور التاريخي الذي ادوه في انقاذ وطنه وانهاضه . ومع ذلك يدعو عليهم بأن يذهب بهم الشيطان جميعا ، ويمقتهم ولا يكترث لهم . وما اظن السيد كشلي الا يوافقني على ان هذه نفسية ممتوه ، على احسن تقدير ، او انه مخلوق بلغ به الحقد حدا اعماه ودمر ضميره تدميرا . ولماذا ؟ لانه قد مقت سلفا ، وكره مقدما ، واشتد به هذا الكره والمقت بنسبة ما رأى الشيء الذي مقته وكرهه يحيا وينمو ويقوى . وانسان كهذا لا يمكن ان تكون لقضيته علاقة بقضية الحرية من قرب او بعد .

واني أرسخ ظنا بان الدكتور عبدالله عبد الدائم يوافقني هو ايضا . فقد آنست من رده رصانة خاصة وحرصا على تجنب المواقف المقررة سلفا . ان الدكتور عبد الدائم يطرح اسئلة وجيهة تدعو الى اعماق التفكير ، ولكنها في الحقيقة تنصل بميدان نظري ينفسح بينه وبين الشيوعيين ، ففيري اولى بان يخوضه واياه . ومع ذلك ارى باستطاعتي ان اقول له ان قضية موقف السلطات الحاكمة من الحرية الفكرية قد كانت وستبقى ، بوجه عام ، قضية حظ هذه السلطات من الطمأنينة او القلق على سلامتها في الداخل او في الخارج ، او في كليهما معا . وبعبارة اخرى ان التوسيع على الحرية في اي نظام انما يرتكز على اساس القوة والثقة بالنفس . وهنا يمكنني كملاحظ قادر ـ ولا فخر ـ ان يكون موضوعيا ، ان اقول للدكتور عبد الدائم :

ـ البقية على الصفحة ٧٥ ـ

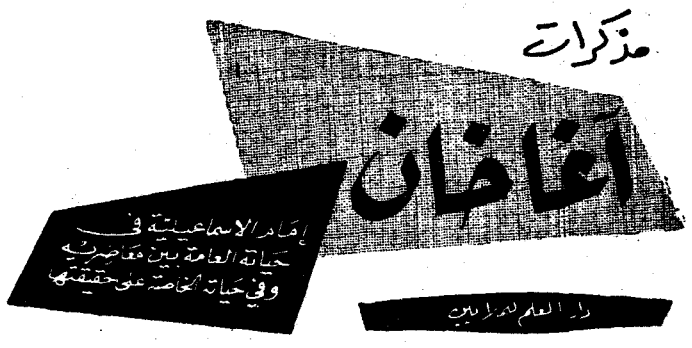

النشاط الثقافي في الوطن العربي

الجمهورية العربية المتحدة

الاقليم الشمالي

الترجمة والنشر .. في وزارة الثقافة

لمراسل الآداب محيي الدين صبحي

يدخل في أعمال وزارة الثقافة تأليف لجنة للنشر والترجمة ، فقد آن لنا ان نشجع أدباءنا المعاصرين وان نكف عن اهمالهم حتى اذا ماتوا تذكرناهم وكرمناهم ونشرنا آثارهم ! ان الكتاب العربي ـ في سوريا خاصة ـ يعيش هو وصاحبه في أزمة مأساة لا نهاية لها .. فكم من كتب ترقد في رفوف اصحابها دون ان تجد طريقها الى الناس. وكم من دواوين ومقالات مبعثرة لا يجمعها أصحابها هربا من الخسارة .. والذين يأبى طموحهم ان يدفن تحت الغبار يقاسون مرارات مرهقة اذ يقترون على انفسهم اوان الطبع وحين تجبى الاثمان من السوق يلتهم الناشر كل ما تبقى فضلا عن أنه يتحكم بطريقة تصدير الكتاب وتوزيعه الى أقطار دون أقطار .

ان تشجيع الادباء يتم الان بطريقتين : ١ ـ ترصد جوائز حول موضوعات تعينها الدولة ، وعلى الادباء ان « ينشئوا » آثارهم حولها .

٢ ـ تتألف لجنة حكام تنتقي احسن الكتب وتوزع الجوائز على اصحابها .

وكلا الامرين سيء. ان تحديد الموضوع شنق لكل عفوية الكاتب وذاتيته ، اما تأليف لجنة حكام فهي مؤامرة لتجميد كل ابداع وتثبيط كل وثبة . وكلا النوعين محاولة خطيرة لربط الادب بالدولة واغتيال حرية الذوق الفني والحد من حرية الفكر . ماذا نتوقع ان تكون لجنة التحكيم ؟ شيوخ محافظون ذوو مسلمات ثابتة لا تقبل التطوير ولا تسيغ الابداع . ويكفي ان نعلم ان « لجنة الشعر العربي » التي يرأسها الاستاذ الكبير عباس العقاد لم تعترف بنزار قباني كشاعر الا في العام الماضي.. يكفي هذا حتى نحكم على اللجنة بانها سلحفائية السرعة والقدرة على مجاراة التطور الادبي وفهم روح العصر .

ان الجمهورية العربية المتحدة من الدول القليلة التي تؤمن للفكر اسس الحرية المطلقة ، فهي لا تتبنى نظاما فكريا ولا تفسيرا كونيا لتفرضهما على الناس قبل ان يشرعوا في التفكير .. كما هو الحال في امريكا وروسيا . كما ان الادب العربي الحديث خلو من نزعة فنية تسيطر عليه وتطبعه بطابعها ، وهو قد تطور بعيدا عن تأثير الدولة ، لذلك يجب ان نحافظ ـ ما استطعنا ـ على حرية الفكر والذوق : ان قصيدة في الغزل ، رقيقة وانسانية ، لا تقل ابدا عن أية

قضية الدكتور جيفاغو

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٢ ـ

ان الدلائل كلها تشير الى ان النظام السوفياتي قد رسا فيه هذا الاساس وثبت بحيث يتسع لتحقيق هذه الامنية التي استبعدها الدكتور ، الا وهي اطلاق حق الانتقاد للحكام السوفياتيين في جرائد سوفياتية وهم احياء .

اما تساؤل الدكتور : هل من الجائز التضحية بانسانية حاضرة ، انسانية حية ، في سبيل الوصول الى انسانية جديدة ربما كانت مزعومة ؟ فاني اقول للدكتور بقطع النظر عن كون هذه الانسانية المستقبلة الجديدة ، مزعومة او غير مزعومة : لا مناص لنا ، يا سيدي ، من التضحية على كل حال . ان التضحية كانت في طبيعة الوجود الانساني منذ ان كان هذا الوجود الانساني ، استمرارا فيه اليوم وفيه الغد ، وفيه الجيل الحاضر الذي يفكر بالجيل المقبل ، وفيه السير على الزهر والسير على الاشواك الدمية . ان مخلوقا كجيفاكو باسترناك افلست نفسه من كل رصيد انساني هو وحده الذي يستطيع ان يرفع شعار العيش للحظة الواحدة ، لان ماضيه قد فات ، كما فات كل ماض ، ولان مقته للبشرية وانانيته يمنعانه من ان يرى معنى لاستمرار البشرية من بعده . والانكى من هذا كله ان جيفاكو هذا يبلغ به تمجيد ذاته الفارغة ان يوهمنا بانه كمسيح الانجيل ، كان مسيح الانجيل الذي هو رمز انكار الذات في سبيل الانسانية يمكن ان يحتمل تشبيهه باناني يرفع شعار العيش للحظة الحاضرة كيف كان الامر ، وولاؤه الاكبر ـ كما يشهد كل تصرفه في القصة ـ انما هو ان يعيش لهذه اللحظة الحاضرة لا لعقيدة أية كانت (١) !..

رئيف خوري

(١) من آيات ذلك ان الدكتور جيفاكو الذي يجد نفسه ، عند اندلاع الثورة ، مع الانصار الشيوعيين هو ميال بعاطفته كلها الى اعدائهم البيض ... ويزحف البيض للقاء الانصار ، ولكن الدكتور جيفاكو لا يحاول ان يلحق بهؤلاء الذين يميل اليهم ويؤيدهم في دخيلة نفسه ، بل يشارك الانصار في اطلاق الرصاص عليهم ويقتل منهم ، مدعيا انه غير قاصد الى القتل ... ثم يطبب جريحا منهم جرحه برصاصه ، ثم يأذن له بالانصراف ليلحق بالقائد كولتشاك خصم الشيوعيين ، ويواصل محاربتهم . ولكن الدكتور جيفاكو يبقى حيث هو في صفوف الانصار ، برغم انه كان قادرا على اللحاق بكولتشاك كما فعل الجريح الابيض الذي عالجه . وهنا يتساءل القارىء : اي «بطل» هذا الذي يباركه باسترناك ، ويريد ايهامنا بان طريقه طريق المسيح . انه بطل يخون نفسه ، ولا تلزمه عقيدته بموقف يتخذه . ولا تفسير لذلك كله الا خوفه وجبنه . ومع ذلك يرى الاخ الصديق محمد كشلي ان باسترناك كان « صادق الاختيار » ، حين عطف على مثل هذا البطل الذي جبن عن اختيار موقف تمليه عليه عقيدته .